الفصل الأول

التصوير فى الاسلام

لقد أصبح من المألوف أن يناقش كل من يتكلم عن التصوير الإسلامى حكم التصوير فى الإسلام : أهو مباح أم محرم أم مكروه ؟ وربما كان السرفى ذلك أنه قد شاع عند الفقهاء المسلمين على اختلاف مذاهبهم أن الإسلام قد حرم التصوير ، فلما كشف الغطاء فى العصر الحديث عن روائع التصاوير الإسلامية من جهة ، وأحس المسلمون بضرورة التصوير ، وفائدته فى الحياة العامة بكافة صورها ، وعدم القدرة على الاستغناء عنه من جهة أخرى أخذوا يراجعون ماشاع عن تحريم الإسلام للتصوير فى ضوء هذه المظاهر . ومن ثم نوقشت هذه المشكلة مناقشة وافية اشترك فيها كثير من العلماء[1] : ولم تقتصر هذه المناقشة على علماء الآثار ورجال الفنون[2] . الذين أجمعوا تقريبا على إباحة الإسلام للتصوير ، بل تعدت هؤلاء إلى أئمة الدين والفقهاء الذين أفتى بعضهم بإباحة التصوير العلمى والفنى[3] ، فى حين استمسك الآخرون بتحريمه ، وإن اضطروا إلى إباحته فى شئونهم الخاصة والعامة .

---

(١) كتب الدكتور على العناني بحثا عن حكم التصوير فى الإسلام عنوانه : Beurteilung der Bilderfrage im Islam nach der Ansiht eines Muslim.

(٢) نذكر منهم على سبيل المثال Arnold (Th.). Painting in Islam صفحة ٧ Creswell (K.A.) : Early Muslim Arhitecture جزء ١ صفحة ٢٧٠ . أما المرحوم الدكتور زكى محمد حسن فقد لخص رأيه فى حكم التصوير فى الإسلام بأن التصوير بأنواعه كان مكروها ، وأنه لم يكن محرما تحريما صريحا . انظر أحمد تيمور : التصوير عند العرب ، إخراج الدكتور زكى محمد حسن صفحة ١٢٨ .

(٣) انظر حديث الأستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش فى حكم التصوير فى الإسلام (مجلة الهداية ، السنة الثالثة ، صفحة ٤٨٧ — ٤٩١) ، وتاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده لجامعه السيد محمد رشيد رضا جزء ٢ صفحة ٤٩٩ — ٥٠١ .

ولم يرد فى القرآن الكريم ما يدل على تحريم التصوير أو إباحته وإن جاء فى بعض الآيات الكريمة ما يشير إلى إباحته بالنسبة للنبى سليمان عليه السلام : « ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر ، وأسلنا له عين القطر ، ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ، ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير . يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل[١] وجفان كالجواب وقدور راسيات : اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور »[٢].

غير أن بعض الأحاديث النبوية الشريفة تناولت الكلام عن التصوير وحكمه ، وموقف النبى (ص) والصحابة منه . ويتعلق بعض هذه الأحاديث بتصاوير الكعبة : ذلك أن الكعبة عندما أعيد بناؤها قبيل الإسلام زوقت دعائمها وسقفها وجدرانها من الداخل بصور[٣] تمثل بعض الأنبياء والشجر والملائكة ؛ ومن هذه الصور صورة كانت تمثل إبراهيم عليه السلام على هيئة شيخ يستقسم بالأزلام ، وصورة تمثل المسيح ومريم العذراء[٤] . ويستفاد من الأحاديث التى تعرضت للكلام عن هذه الصور أن النبى (ص) أمر عند فتح مكة بمحوها وإزالتها : فقد جاء فى كتاب الحج من « صحيح البخارى » عن ابن عباس « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة ، فأمر بها فأخرجت ، فأخرجوا صورة إبراهيم وإسماعيل فى أيديهما الأزلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قاتلهم الله أما علموا أنهما لم يستقسما بها قط ، فدخل البيت فكبر فى نواحيه ولم يصل »[٥] .

وقد روى البخارى هذا الحديث أيضا فى غزوة الفتح ؛ وقال الحافظ بن حجر فى « فتح البارى » فى شرح هذا الحديث من باب الغزوة المذكورة ما نصه :

---

(١) بمعنى التماثيل المخروطة والصور الملونة .

(٢) قرآن كريم ، سورة سبأ ، الآية ١٢ ، ١٣ .

(٣) بمعنى التماثيل والصور .

(٤) الأزرقى : أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ؛ أحمد تيمور : التصوير عند العرب صفحة ١١٩ .

(٥) صحيح البخارى : جزء ١ صفحة ١٨٣ .

« وقع فى حديث جابر عند ابن سعد وأبى داود أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر عمر بن الخطاب وهو بالبطحاء أن يأتى الكعبة ليمحو كل صورة فيها فلم يدخلها حتى محيت الصور ؛ وكان عمر هو الذى أخرجها ؛ والذى يظهر أنه محاما كان من الصور مدهونا مثلا ، وأخرج ما كان محفوظا »[١] .

ولكن وردت أحاديث أخرى تفيد الإبقاء على صورة المسيح عليه السلام والسيدة العذراء ، واستثناءها من المحو والإزالة . ومن هذه الأحاديث ماروى عن ابن عائذ فى المغازى أن صورتى عيسى وأمه عليهما السلام بقيتا حتى رآهما من أسلم من نصارى غسان فقال : « إنكما لبلاد غربة » ؛ فلما هدم ابن الزبير البيت ذهبتا فلم يبق لهما أثر . وروى عن ابن جريج أن بعضهم أدرك فى الكعبة تمثال مريم عليها السلام وفى حجرها ابنها مزوقا ، وكان ذلك فى العمود الأوسط الذى يلى الباب ؛ ثم ذهب فى الحريق[٢] .

ومع ذلك فلسنا نشك فى أن النبى (ص) أمر بإزالة جميع الصور من الكعبة نظرا لاعتبارها من الأصنام التى جاء الإسلام لمحاربتها ؛ أمّا ماذكر من أن بعض هذه الصور قد بقيت فقد يرجع ذلك إلى خفائها على من محاها ، كما أشار إلى ذلك الحافظ ابن حجر فى « فتح البارى بشرح صحيح البخارى » فى شرح غزوة الفتح[٣] .

وهناك مجموعة من الأحاديث الشريفة تناولت الكلام عن التصوير بصفة عامة : فقد أورد البخارى فى باب التصاوير[٤] من كتاب اللباس فى صحيحه عن

---

(١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى جزء ٧ صفحة ٣٨ .

(٢) أحمد تيمور : التصوير عند العرب صفحة ٢ . وقد روى الأزرقى فى « أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار » أن النبى (ص) لما دخل الكعبة بعد فتح مكة قال لشيبة بن عثمان : « ياشيبة امح كل صورة فيه إلا ماتحت يدى . » قال : « فرفع يده عن عيسى بن مريم وأمه » . صفحة ١٠٦ — ١٠٧ . ومن الواضح أن خبر الأزرقى لايرقى إلى مرتبة الاحاديث .

(٣) أحمد تيمور : التصوير عند العرب صفحة ٢ .

(٤) بمعنى التماثيل والصور .

مسلم أنه قال: كنا مع مسروق فى دار يسار بن نمير فرأى فى صفته تماثيل ، فقال: سمعت عبد الله قال : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أشد الناس عذابا عند الله يوم القيامة المصورون »[١] . وجاء فى باب « من كره القعود على الصور » من كتاب اللباس فى صحيح البخارى أيضا عن عائشة رضى الله عنها : أنها اشترت نمرقة فيها تصاوير؛ فقام النبى صلى الله عليه وسلم بالباب فلم يدخل ؛ فقلت : أتوب إلى الله مما أذنبت قال : ما هذه النمرقة ؟ قلت : لتجلس عليها وتوسدها ؟ قال : إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة : يقال لهم أحيوا ما خلقتم ، و إن الملائكة لا تدخل بيتا فيه الصور »[٢] . وجاء فى باب نقض الصور من كتاب اللباس أيضا عن أبى زرعة أنه قال : « دخلت مع أبى هريرة دارا بالمدينة فرأى أعلاها مصورا يصور ، فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى : فليخلقوا حبة ، وليخلقوا ذرة . . . »[٣] وأورد البخارى كذلك فى باب « ماوطىء من التصاوير » من كتاب اللباس أن عائشة رضى الله عنها قالت : « قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر وقد سترت سهوة[٤] لى بقرام[٥] فيه تماثيل[٦] فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم تلون وجهه وقال : ياعائشة أشد الناس عذابا عند الله يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله . قالت : فقطعناه فجعلنا منه وسادة أو وسادتين »[٧] .

وجاء فى صحيح البخارى فى باب « من كره القعود على الصور » من كتاب

---

(١) صحيح البخارى جزء ٤ صفحة ٢٩ . المصورون هنا بمعنى صانعى التماثيل وصانعى الصور .

(٢) صحيح البخارى جزء ٤ صفحة ٣٠ .

(٣) المرجع نفسه جزء ٤ صفحة ٣٠ .

(٤) السهوة هى الرف أو الطاق .

(٥) القرام هو الستر .

(٦) بمعنى الصور .

(٧) صحيح البخارى جزء ٤ صفحة ٣٠ .

اللباس عن بُسر بن سعيد عن زيد بن خالد عن أبى طلحة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه الصورة » . قال بُسر : ثم اشتكى زيد فعدناه ، فإذا على بابه ستر فيه صورة ، فقلت لعبيد الله ربيب ميمونة زوج النبي صلى الله علية وسلم : « ألم يخبرنا زيد عن الصور يوم الأول ؟ » فقال عبد الله : « ألم تسمعه حين قال إلا رقما فى ثوب ؟ »[١] . ورُوى فى باب « بيع التصاوير التى ليس فيها روح وما يكره من ذلك » من كتاب البيوع عن سعيد بن أبى الحسن أنه قال : « كنت عند ابن عباس — رضى الله عنهما — إذ أتاه رجل فقال : « يا أبا عباس إنى إنسان إنما معيشتى من صنعة يدى ، وإنى أصنع هذه التصاوير » ؛ فقال ابن عباس : « لا أحدثك إلا ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من صور صورة فإن الله معذبه حتى ينفخ فيها الروح وليس بنافخ فيها أبداً . فربا الرجل ربوة شديدة ، واصفر وجهه . فقال : ويحك إن أبيت إلا أن تصنع فعليك بهذا الشجر : كل شىء ليس فيه روح . »[٢]

وجاء فى « ربيع الأبرار » للزمخشرى فى حديث عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك ، وفى سهوتى ستر ، فهبت الريح ، فكشفت ناحية الستر عن بنات[٣] لى فقال : ما هذا ؟ قلت : بناتى ؛ ورأى بينهن فرسا له جناحان قال : فرس له جناحان ؟ قلت : أما سمعت أن لسليمان خيلا لها أجنحة ؟ فضحك حتى بدت نواجذه »[٤] .

كما جاء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج ذات يوم وعليه مرط[٥]

---

(١) المرجع نفسه جزء ٤ صفحة ٣٠٠ .
(٢) المرجع نفسه جزء ٢ صفحة ١٩ .
(٣) البنات : لعب الأطفال من التماثيل الصغيرة .
(٤) أحمد تيمور : التصوير عند العرب صفحة ٨٢ .
(٥) المرط : كساء من صوف أو خز كان يؤتزر به .

مرحل[١] من شعر أسود ؛ وأن النبى صلى الله عليه وسلم كان يصلى وعليه من هذه المرحلات ، وجاء فى حديث السيدة عائشة : « وذكرت الأنصار فقامت كل واحدة إلى مرطها المرحل[٢] » .

وإذا تدبرنا الآيات القرآنية الكريمة ، والأحاديث النبوية الشريفة المتعلقة بالتصوير فى ضوء ما وصلنا من الصور الإسلامية التى ترجع إلى العصور الأولى[٣] ، وتمتد على طول التاريخ الإسلامى حتى العصر الحديث ؛ ثم فى ضوء أهمية التصوير فى حياتنا ، وفائدته التى لا يمكن إنكارها ، وأخيراً فى ضوء روح الإسلام وطبيعته نلاحظ أن ما ورد بشأن تحريم صناعة التصاوير إنما كان يعنى صناعة التصاوير بقصد العبادة ، أى صناعة الأصنام : ذلك أن صانع التصاوير قبل الإسلام لم يكن يصنع التصاوير لمجرد الفن أو لخدمة العلم ، وإنما كان يصنعها لتكون أصناما وأوثاناً تعبد من دون الله ؛ وإذا كان الإسلام قد نهى عن عبادة التصاوير فمن الأولى أن ينهى عن صناعتها . ويؤيد ذلك أن ابن عباس قد أباح لصانع التصاوير — الذى جاء يستشيره فى أمر صناعته — أن يصور فقط الشجر وكل شىء ليس فيه روح[٤] : أى أنه أباح تصوير ماليس له قدرة ظاهرة حتى لا يظن المصور — وهو من طائفة يغلب عليهم عادة كثير من النزعات العاطفية — أنه قادر على الخلق ومنافسة الخالق ، وحتى لا يزعم إنسان أن الصورة لها أية قدرة أو قوة أو عمل ؛ وبذلك تزول شبهة الرجوع إلى عبادة الأوثان والأصنام ؛ لا سيما وأن القوم حديثو عهد بهذه العبادة .

كما يلاحظ أن بعض هذه الأحاديث إنما يدخل فى باب حث النبى (ص) للمسلمين على التقشف ، وعدم الإسراف فى الكماليات ، حتى لا تشغلهم عن

---

(١) مرحل : أى عليه صور الرحال . وقرىء « مرجّل » أى عليه صور الرجال .

(٢) أحمد تيمور : التصوير عند العرب صفحة ١٢ .

(٣) من ذلك عملة عبد الملك بن مروان ، وفسيفساء الجامع الأموى بدمشق ، وصور قصره عمرة .

(٤) صحيح البخارى جزء ٢ صفحة ١٩ .

القيام بأعباء الرسالة التى كان عليهم أن يؤدوها ؛ وقد بدأ النبى (ص) فى ذلك بنفسه ثم بأهله ؛ ويتجلى ذلك بشكل واضح فيما جاء فى خطبة لعلى بن أبى طالب فى وصف النبى (ص) : « ويكون الستر على باب بيته فتكون فيه التصاوير فيقول : يا فلانة — لإحدى زوجاته — غيبيه عنى فإنى إذا نظرت إليه ذكرت الدنيا وزخارفها »[١] . كما جاء فى صحيح البخارى فى كتاب اللباس عن أنس قال . كان قرام[٢] لعائشة سترت به جانب بيتها ، فقال لها النبى صلى الله عليه وسلم : أميطى عنى ، فإنه لا تزال تصاويره تعرض لى فى صلاتى »[٣] .

وهكذا يمكننا أن نقرر مطمئنين أن الإسلام قد أباح التصوير ما دام بعيداً عن الوثنية ، وعن شبهة منافسة الخالق ، وعن تثبيط الأمة عن القيام بواجبها وتحمل مسئولياتها ؛ والحق أن التصوير يتفق فى ذلك مع جميع الأشياء المباحة الأخرى .

ومن المعروف أن المسلمين فى العصور الأولى لم يتشددوا ضد التصوير ؛ كما يشهد بذلك استخدامهم فى صدر الإسلام للأستار[٤] والوسائد[٥] ذات الصور ، والثياب المرقمة[٦] ، والمروط المرحلة[٧] ، واللعب المصورة[٨] ؛ وكما تشهد بذلك إباحة الارتزاق من صناعة تصوير ما ليس فيه روح[٩] ؛ وكما يستشف من الصور

---

(١) أحمد بيور : التصوير عند العرب صفحة ١٦ .
(٢) القرام : الستر .
(٣) صحيح البخارى : جزء ٤ صفحة ٣٠ .
(٤) انظر صفحة ١١ .
(٥) انظر صفحة ١٠ .
(٦) انظر صفحة ١١ .
(٧) انظر صفحة ١١ و ١٢ .
(٨) انظر صفحة ١١ .
(٩) انظر صفحة ١١ .

المائية التي وصلنا بعضها ، والتي كان الأمويون يزينون بها قصورهم في الصحراء[١] ، ومن صور الفسيفساء التي كانت تزين جدران المسجد الأموى بدمشق[٢] ؛ وكما يستدل من سك عملة إسلامية ذات صور[٣] . ولكن الفقهاء أخذوا بعد ذلك يبالغون في حظر التصوير ؛ وقد عبر الزهري عن الرأى الذى أخذ يسود العالم الإسلامى فى العصور الوسطى بقوله . « النهى فى الصورة على العموم ، وكذلك استعمال ماهى فيه ، ودخول البيت الذى هى فيه سواء كانت رقما فى ثوب أو غير رقم وسواء كانت فى حائط أو ثوب أو بساط ممتهن أو غير ممتهن »[٤] .

وليس من شك فى أن تشدد المسلمين فى العصور الوسطى ضد صناعة التصاوير واتخاذها كان له أسبابه . وقد حاول بعض العلماء التعرف على هذه الأسباب فمنهم من أرجع التشدد إلى تأثير اليهود الذين دخل بعضهم فى الإسلام[٥] ، ومنهم من أرجعه إلى التأثر بالحركة اللاإيقونية فى الدولة البيزنطية التى نشأت فى بداية الربع الثانى من القرن الثامن الميلادى[٦] ومنهم من أرجعه إلى خوف الساميين بطبيعتهم من التصاوير[٧] . ومن الواضح أن هذه الأسباب مفتعلة ، وقد سبق أن فندها بعض العلماء فى أبحاث سابقة[٨] . وفى رأينا أن تشدد المسلمين

---

(١) انظر الفصل الثالث .

(٢) انظر الفصل الثانى .

(٣) أقدمها عملة عبد الملك بن مروان .

(٤) شرح النووى على صحيح مسلم (طبع دلهى جزء ٢ صفحة ١٩٩) ؛ أحمد تيمور : التصوير عند العرب صفحة ١٢٠ .

(٥) Creswell (K. A. C.). Early Muslim Architecture جزء ١ صفحة ٢٧١ ؛

(٦) Hautecoeur et Wiet. Les Mosquées du Caire جزء ٢٦ صفحة ١٩١ ؛ Becker. Zeitschrift für Assyriologie صفحة ١٧٤ — ١٧٥ .

(٧) Viardot: Gazette des Beaux-Arts. 2me période جزء ١ صفحة ٥٥٦ ـ ٥٥٩ ؛ Babier de Meynard. Revue Critique, n. s. جزء ١ صفحة ٣٣٣ — ٣٣٥ .

(٨) انظر أحمد تيمور : التصوير عند العرب . إخراج الدكتور زكى محمد حسن صفحة ١٣٤ — ١٣٨ .

فى العصور الوسطى ضد التصوير إنما يرجع إلى مبالغة المسيحيين بصفة عامة فى استخدامه ، لا سيما وأن التصوير كان يستخدم فى ذلك الوقت بصفة أساسية فى تجسيم المعتقدات الدينية المسيحية ، مما دفع المسلمين إلى التشدد فى حظره . والحق أن الحرص على التعارض بين رجال الدين المسيحيين من جهة والفقهاء المسلمين من جهة أخرى يعزى إليه مبالغة المسلمين فى تحريم التصوير، كما قد يفسر موقف كل من الطائفتين إزاء كثير من المشاكل الاجتماعية فى العصور الوسطى .

ومهما يكن من أمر فإن ما شاع عن تحريم التصوير فى الإسلام كان له أثره على التصوير البحت وعلى المصورين فى العصور الوسطى الإسلامية : إذ لم يبلغ المصور مرتبة رفيعة بالنسبة لغيره من المفكرين والأدباء فى العالم الإسلامى ، أو بالنسبة للمصورين فى الأقطار غير الإسلامية : ذلك أنه كان مغضوبا عليه من رجال الدين ، ومن ثم كان عرضة لسخطهم ولسخط المجتمع الذى كان يقوم أساساً على الدين . ومن هنا لم يعن المؤرخون بتدوين أخبارهم عنايتهم بغيرهم من الشعراء والأدباء والعلماء والمفكرين : وإذن فليس غريباً ألا يصلنا كتاب واحد عن المصورين على كثرة ما وصلنا من كتب الطبقات ، بل إنه لم يبلغنا — فيما نعلم — غير اسم كتاب واحد ذكره المقريزى فى « خططه » وهو « ضوء النبراس وأنس الجلاس فى أخبار المزوقين من الناس »[1] ، وكل ما وصلنا عن المصورين هو قليل من أخبارهم وردت فى ثنايا الكتب .

وبالإضافة إلى ذلك فإن المجتمع نفسه لم يكن حريصاً على المحافظة على إنتاج المصورين : فكم من صور طمست باسم الدين ! ! وكم من رسوم شوهت نتيجة تحريض الفقهاء ! ! ! وكم من كتب مصورة نفيسة أحرقت بدافع التدين ! ! !

وفضلا عن ذلك كان المصور عادة بحكم عمله تابعاً للخطاط : عليه أن ينتظر إلى أن يفرغ الأخير من كتابة المخطوط ، ثم يشرع هو بدوره فى توضيح النصوص

---

(١) المقريزى : خطط جزء ٢ صفحة ٣١٨ .

بالتصاوير فى حدود ما يتركه له من مساحة فى صفحات المخطوط . ولقد كان المصور أقل مكانة من الخطاط الذى كان عمله يقوم بصفة أساسية على كتابة كلام الله تعالى ؛ بل كان أيضا أقل من المذهّب الذى يقوم بتذهيب المصاحف الكريمة .

وكأن المصورين أنفسهم قد أثر فيهم ما يقابلون به من إهمال ، فلم يبذلوا كثيراً من الجهد فى تمييز أساليبهم أو فى طبع إنتاجهم بطابع ذاتى ؛ كما أنهم لم يضعوا أسماءهم على الصور التى كانوا يرسمونها ، مما أدى إلى أن الصور الإسلامية فى العصور الوسطى قل أن تنسب إلى مصوريها ؛ ومن ثم جرت العادة أن يدرس التصوير الإسلامى فى العصور الوسطى فى ضوء الإنتاج والتصاوير فحسب ، دون العناية بالمصورين أنفسهم — كما سبق أن قدمنا .

وكان من الطبيعى ألا يحظى فن التصوير بما حظى به غيره من الفنون الإسلامية من عناية ورعاية . وكان من نتيجة ذلك أن منتجاته لم تتنوع من حيث الطريقة والصناعة التنوع المعروف فى منتجات التصوير فى الفنون الأخرى : فلم يقبل المسلمون فى العصور الوسطى على اتخاذ المصورات أو اللوحات المعروفة فى بعض الفنون الأخرى ، كما أنهم لم يعنوا كثيراً بتجميل مبانيهم بالصور الحائطية .

وفضلا عن ذلك لم يستعمل التصوير لخدمة الدين : فلم يدخل فى المساجد[1] ، ولم يسهم فى تجميل المصاحف ، ولم يستعمل فى توضيح كتب الفقه أو الحديث أو غيرها من المؤلفات الدينية ، ولم يتخذ كوسيلة للإرشاد والتهذيب وتعليم الدين . حقاً لقد وصلنا بعض الصور التى تمثل موضوعات دينية : كصور بعض الأنبياء ، أو كالصور التى تمثل بعض الحوادث الدينية مثل الإسراء والمعراج ؛ وقد حظيت

---

(١) صور الفسيفساء بالمسجد الأموى بدمشق لا تشتمل على صور كائنات حية . انظر الفصل الثانى .

هذه الصور بعناية مؤرخى الفنون ، وذلك بحكم مخالفتها للاتجاه العام فى التصوير الإسلامى ، وبحكم ما فيها من استثناء للقاعدة .

غير أن بُعد التصوير الإسلامى عن الدين هيأ له مزية لم تتهيأ للتصوير فى الفنون الدينية الأخرى إلا فى عصور متأخرة ، إذ جعله مدنياً فى طابعه ينظر إليه كفن من فنون الدنيا لا كعمل من أعمال الآخرة ؛ ومن ثم كان أقرب من غيره إلى الفكرة الفنية الخالية ، كما صار ميدانه الحياة الدنيا بما فيها من مناظر طبيعية ، وحوادث إنسانية ، وأعمال يومية ، وحياة ريفية .

ولقد تميز التصوير الإسلامى منذ البداية بالإقبال على رسوم الطبيعة البحتة التى لاتتمثل فيها الرسوم الآدمية أو حتى أحياناً الرسوم الحيوانية — كما هى الحال فى صور الفسيفساء فى الجامع الأموى بدمشق[١] . وربما ترجع العناية بهذه الصور الطبيعية إلى أن رجال الدين فى العصور الوسطى لم يجدوا غضاضة فى تصوير ماليس فيه روح[٢] ، كما أن الإسلام قد دعا إلى تأمل الطبيعة ، وإلى تدبر قدرة الله الذى خلقها فسواها ؛ « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت »[٣] .

وفضلا عن ذلك يجب ألا نغفل هنا تأثر الفن الإسلامى فى بعض عصوره بالاتجاهات الطبيعية فى الفنون الأخرى ، ولا سيما فى الفن الصينى الذى ظهر تأثيره بشكل واضح منذ أن دخل التتار فى إيران . كما يلاحظ أن بعض التصاوير الإسلامية خلت من تمثيل الإنسان لأنها رسمت لتوضح نصوصا لا تتصل بحياة الإنسان مباشرة : كما هى الحال بالنسبة للتصاوير التى تزوق كثيرا من مخطوطات كتاب « كليلة ودمنة » الذى تدور أقاصيصه حول الحيوان ؛ ومن ثم جاء معظم صوره خاليا من الرسوم الآدمية .

---

(١) انظر الفصل الثانى

(٢) انظر صفحة ١٣ .

(٣) قرآن كريم ، سورة الغاشية ، الآيات ١٧ — ٢٠ .

ومهما تكن الأسباب التى أدت إلى العناية برسوم الطبيعة فقد استطاع المصورون المسلمون أن ينتجوا صورا طبيعية رائعة . ومما يبعث على الدهشة أن بعض هذه الصور ليست مجرد صور وصفية ، بل إن فيها فى كثير من الأحيان تعبيرا عن أحاسيس الفنان ومشاعره إزاء المناظر الطبيعية المختلفة .

وبالإضافة إلى هذه الاتجاهات التى وضحت فى التصوير الإسلامى تميزت الصور الإسلامية من حيث الأسلوب ببعض المميزات العامة . ومن أهم هذه المميزات البعد عن تصوير الواقع وعن تقليده تقليدا حقيقيا ، وربما يرجع ذلك أيضا من بعض الوجوه إلى التعاليم الدينية التى تنفر من مضاهاة خلق الله[1] ؛ ومن ثم لم يعن المصور المسلم بتصوير عناصره كما يراها فى الطبيعة ، ولا بوضعها فى وضع واقعى بالنسبة لغيرها من العناصر : فجاءت الصورة خالية من التجسيم ومن العمق ومن المنطقية . وقد أدى ذلك إلى أن أصبحت الصورة ذات طابع زخرفى سواء فى وحداتها أو فى تصميمها كما رسمت عناصرها المختلفة من أشخاص وحيوان ونبات وعمائر رسما محورا قد لعب الخيال فيه دورا كبيرا ، بحيث صار لا يتفق مع العقل أو الحقيقة أو الواقع .

ويجب ألا تعتبر هذه المميزات العامة من المساوىء أو من المحاسن : ذلك أنها لا تعدو أن تكون نوعا من الأساليب العامة التى تتميز بها بعض الفنون ؛ بل قد تكون طابعا عاما لبعض العصور أو الأقاليم أو حتى بعض الفنانين . كما أنها ليست إلا طريقة من الطرق قد يحسن استخدامها فتأتى الصورة جميلة ، وقد يساء استعمالها فتصير الصورة قبيحة . والحق أنه قد أحسن استخدام هذه الطريقة فى كثير من الصور الإسلامية سواء فى ذلك صور الفسيفساء أو الرسوم المائية على الجص أو التصاوير فى المخطوطات .

---

(١) انظر صفحة ١٢ .